بواعث التجربة الشعرية

بقلم ايليا الحاوي

لا شك ان وراء التجربة الشعرية ، محاولة لفض حدود الاشياء ، وتخطي الاساليب المنطقية التي يهادن بها العقل مظاهر الوجود ، ويسالم رموزها ، ويرضح لما يتضح وينجلي منها . ولئن كانت التجربة الشعرية تصدر ، غالبا ، عن باعث ذاتي ، فان وراء ذلك الباعث الظاهر ، جذورا خفية ترتبط بموقف الشاعر من الوجود ومن المعاني التي انيطت بمظاهره ، وتقررت فيها ، دون ان تهدىء من روعه وتوفي به الى يقين نهائي يسيغه ويركن اليه . وذلك ، في معظمه ، وليد ردة النفس على ذاتها ، او بالاحرى وليد ردتها على العقل وسخطها على حدوده ومنطقه القاصر الذي يغرر به الوضوح وثورتها على حتمية العالم الخارجي واقداره ونواميسه ولغزه الثابت الرتيب . فالشاعر ينعم ، حينا ، بتقصي الاشياء ليستبطن اسرارها ، لكنه يظل يشعر بالرغم من قدح الذهن والتقصي ، ان ما ادركه يختلف تماما عن تلك السورة الغامضة التي تعتري نفسه امام حقائق الوجود ومظاهره . فالعالم اذ يقبل على دراسة الشجرة مثلا ، يخلص الى حقائق مقررة لا لبس فيها . وهي ، كذلك حقائق ثابتة ، تكاد لا تتغير ، لانها بعد ان ادركت ذاتها اوشكت ان تتحرر تحررا تاما من النفس . اما الشاعر فانه قد يفضي الى ما افضى اليه العالم من الشجرة ويدرك اساليب نموها وتاثير الزمن والفصول عليها الا انه لا يكتفي بذلك ، بل يراه خارجيا ، قاصرا ، ويظل يشعر ان في الشجرة رمزا لم يلتقطه العقل ولم تقرره اساليب الاختبار والتجربة . وذلك لان العالم التفت الى الشجرة كشيء معزول عنه ، مستقل بوجوده وطبيعته ، بينما يلتفت اليها الشاعر كظاهرة حية ، ترتبط بها نفسه ، ويشخص فيها ملمح حي من ملامح لغز الوجود . فالشجرة تورق وتزهر وتثمر من علاقتها الحميمة برحم الارض والفصول . لكن الشاعر يلتفت الى اوراقها وازهارها من خلال تنازعه للوجود وتغدو هذه المظاهر كلها موضع تحر وتساؤل لديه . وبالرغم من انه يدرك البواعث المادية العلمية للزهر والورق والثمر فانه يظل يتحرى عن اسبابها الوجودية ، اي عن غايتها من ذاتها وغايتها من الاشياء .

الفيض والحلولية

ولا فرق ، بعدئذ بين مظهر واخر في يقين النفس بالرغم من الاختلاف العميق بينهما في اليقين المنطقي . لهذا لم يعد ثمة فرق بين البكاء والغناء ، في ذلك اليقين العدمي الشاحب الذي طغى على نفس ابي العلاء ، بالرغم من اختلاف ذينك المظهرين بل تناقضهما في اليقين العلمي وذلك لان الشاعر تجاوز عن ظاهر الاشياء وحدودها الخارجية وطبيعتها الزائفة ونفذ في احساسه القاتم العميق بماساة الوجود ، الى توحيد ما هو مختلف ، وتاليف ما هو متناقض ، رابطا الجزء بالكل ، والمظهر بالجوهر ، وما هو كائن بما سوف يكون . وهكذا ، فان التجربة الشعرية العميقة تصدر عن ذلك التوحيد الحي الذاهل بين ما تعانيه النفس في الداخل وما تبصره في الخارج . انه نوع من فيض النفس على الوجود واخضاع له لقدر الحياة والموت والبعث ، وذاك الشعور الحاد بمصير الزوال والعبث . فليل امرىء القيس ليس في الواقع ، ليل الطبيعه ، وانما هو ذلك الليل ذاته ، بعد ان حلت فيه روح الشاعر ، ووحدت بين سواده وسواد الهموم ، وصدرت الى العالم الخارجي لتبعث بعثا نفسيا بعد ان اتصلت بروحه من دون شكله ورمزه من دون معناه . ولعل هذا ما كان يشير اليه برغسون عندما قال ان الشعر يصدر عن الانفعال المبدع . ذلك ان العالم الخارجي ، في مفهومه الشائع هو وليد اليقين العقلي وتلك المهادنه التي تجعل النفس ترضى بواقع الاشياء ومصيرها . ذلك العالم ، هو عالم هادىء مطمئن حتى اذا ارتجت النفس وتعقدت ، واخذتها حيرة الاشياء فانها تبعث في ذلك العالم المطمئن صور الشك والقلق ، وتخرجه عن حدوده لتحيي مادته الجامدة وتشركها مشاركة حميمة بالمصير البشري . والواقع ان النفس ، تحيا ، ابدا ، تحت وطاة العقل والحس وهذه جميعا ليست سوى جدران لسجن العالم وسور الحقيقة التي ترهق الانسان وتضنيه بثبوتها ورتابتها وانعدام التطور في رحمها . اما العاطفة فهي منفذ من سجن المادة والواقع وكوة تفتحتها النفس من جدار الكون الى عالم الرؤيا ، حيث تنعكس ظلال العالم الحسي انعكاسا ايحائيا وجدانيا ذاهلا . لذلك نرى ان الشعر هو ، غالبا ، فرض لواقع النفس على واقع الوجود انه تجديد وتنويع له ، وهروب من مطلقه الثابت ثبوت السام والجماد والعدم . لذلك ايضا ، كان عالم العلم عالما واحدا ، لا مباليا ، لا يعي ذاته ولا يعي ما حوله لا تنمو خلاياه ولا تصيبه معاناة القدر والموت . وهو ، في ثبوته ، كانما يرمز الى اليأس واللاخلاص ، وما الى ذلك مما يوري في نفس الانسان شهوة الانقراض والعدم . حتى اذا تلوت النفس على واقعها على رتابة العقل وحدود العالم الخارجي التي تظل باحداق متشابهة متكررة فان تلك الثورة تبدع من العالم الخارجي الواحد ، عوالم متجددة متوالدة بتوالد اللحظات النفسية . فالليل الذي بدا لامرىء القيس كجمل من الهموم ينوء بثقله الرهيب يبدو هو ذاته لصلاح لبكي وكانه «يحمل للبائس وعود الهناء ، او كانه يبتسم ويتفتق ثغرا فثغرا على فجوات السماء » والواقع ان الليل لا يتبدل قط في حدود العقل والعلم ، الا ان التجربة الشعرية المبدعة التي عاناه بها كل من امرىء القيس وصلاح لبكي اناطت به دلالة نفسية جديدة مبتكرة ونوعته وفجرت عبره ابعادا لم تتيسر لحدقة العلم القاصر والعقل الحسير .

بعث العالم المادي

وهكذا ، فان وراء التجربة الشعرية محاولة لزعزعة العالم المادي المتجمد ، وخلقه خلقا نفسيا يزيل برودة العقل وثباته وعجزه عن الرؤيا الجديدة التي تخرج الانسان من دوامة السام في الوجود . فالمرء اذ ينظر فيما حواليه ، لا

يقع الا على الرتابه والتكرار . كل شيء يحمل معناه الحتمي الذي لا قبل لنا برفضه او تغييره ، فكان ماهية الاشياء تحدنا وتكبتنا وتجعلنا نشعر انه لا حرية لنا تجاهها . فهي تفرض نفسها علينا من خلال العقل وتتخذ معنى لا تحيد عنه ، فكان العقل اذ اوضح معاني الاشياء ، حنط العالم وحوله ، جميعا ، الى ما يشبه الجماد الذي لا صيرورة له ولا تطور فيه . فالليل هو الليل منذ الاف السنين وكذلك النهار والضوء والبحر والتراب والشجر والمطر والبرق والرعد ، وكل ما في الوجود ، هو ذاته لم يتبدل منذ الاف السنين ولن يتبدل في اي حين من الاحيان . وهذه المظاهر التي لا يمكن ان تمثل الا ذاتها في حدود العقل ، والتي لا يمكن أن تتبدل وتجدد وتكتسب معاني مبتكرة في حدود المنطق ، ترهق وعي الانسان ولا وعيه وتسيطر عليه وتخذله اذ يشعر انه وجد في عالم كل ما فيه ينظر اليه بعين ميتة جامدة تعيني ابي الهول . انه عالم سئم متضجر من ذاته اصابه الركود ، وانعدمت فيه الحركة المبدعة ، فغدت مظاهره تهياكل عدمية صامتة تطل فيها جماجم الاشياء التي لا احداق لها ، ولا روح ولا بعث فيها . اجل لا نجاة للانسان من حتمية الاشياء وعبوديتها في طبيعة العقل والعلم والواقع . فالصباح الذي طلع امس ، هو ذاته الذي طلع قبله ، او منذ بدء الخليقة ، وهو يحمل معنى واحدا للعقل وقد ادرك ذلك المعنى غاية البداهة والثبات واستحالة التغير حتى غدت شمس الصباح وكأنها شمس اليأس والقنوط ، ترسل اشعة السأم والجمود في عالم الانسان المقهور المغلوب على امره . لهذا لا نرانا مغالين اذا قلنا ان عالم العقل ، هو عالم الانسان الموثوق ، الفاقد حريته ، المنحني عنقه ، عالم الانسان المختنق في قمقم الارقام والاحجام والمقاييس . اجل كل ما هو حولنا مستقل عنا ، لا يبالي بنا وهو يجثم بثقله الرهيب على ادراكنا . والانسان في وعيه ولا وعيه ، لا يطيق شعوره بهذا العجز المرهق امام حدود الاشياء واقدارها ، لانه يوري لديه حسا فاجعا بتفاهته وقلة شأنه ، وادراكا دائما لهزيمته واندحاره . وبالرغم من ان الانسان يتوهم انه سيد الوجود اذا بثبوت الاشياء ازاءه ، وجمود معانيها في عقله ، يوهمه أنه ادخل الى عالم جاهز نرتبط به ولا يرتبط بنا .

وهكذا فان مظاهر الوجود ، كلها ليست في الواقع سوى سور شتى لمنفى هذا العالم الذي استيقظنا فيه ، نعاني ونعي ونتوق ونتنازع وهو شاخص الينا دون احداق او ملامح ، ومحيط بنا بوضوح اشد قساوة من الظلمة وباستقرار صلد قاس اشد رعبا من التزعزع والهاوية . هذا العالم هو عالم اعجم ، ساقط ، خاسر ، غريب عنا ، انه عالم العلم والعقل والواقع ، عالم اليبوسة الذي لا عاطفة فيه ولا ميل او شهوة .

الحركة الظاهرة

لا شك ان في ظاهره ، حركة ، وفيه نوعا من التبدل الا ان ذينك الحركة والتبدل لا يغشيان الا الاشكال والالوان والاحجام ، كما ان حركته مقيدة ، متكررة بذاتها ، فهي شبيهة بالركود . فالانسان يدرك ان الصباح يولد في كل يوم ويموت في كل مساء ، وان الربيع يفد في موسمه ويخلفه الصيف وهذه الصيرورة المحتمة وذلك التخالف هما مظهران واضحان لسجن اليأس والسأم .

لهذا كله تعود بواعث التجارب الشعرية في معظمها الى ذلك التنازع الحاد بين العقل الذي يقبل بواقع العالم الخارجي ولا يأخذ منه الا ما يعطيه والعاطفة المتمردة الرافضة التي تحيا مكبوتة ضمن جداره . ولئن استسلم الانسان ، حينا وغلب على امره واندحر شعوره بالتفوق والقدرة على ابداع الاشياء وخلقها من جديد، فانه لا يعتم ان يشرئب ويعصى ناكرا عبوديته ، شاعرا ، عبر انفعاله ويقينه النفسي ، انه حر حرية تامة ، تلك حرية الشعور والرؤيا التي تطلقه من عبودية العقل والمعرفة ويتيقن انه قادر قدرة تامة ، تلك قدرة الروح التي تفكه من عقال المادة والحس اللذين يتصلان بها ويعبران عنها .

الفن وتوق الانسان الى الحرية

لهذا لا نرانا مغالين اذ نقول ان الفن هو وليد توق الانسان الى الحرية وشعوره بها شعورا عميقا يفك عقال نفسه ، فينبري للاشياء يهدمها ويبنيها من جديد ، الفن هو تحرر من عبوديه العالم وانتقاض لحتميته وجبروته ومحاولة للشموخ والتحليق بعد ان يستعيد الانسان جناحي حريته طليقين ، قادرين .

ولعل بودلير كان يشير الى ثورة الانسان على حتمية العالم الخارجي ورتابته اليائسة المطبقة ، اذ قال مخاطبا الموت :

ايها الموت ، ايها القبطان القديم
لقد ان الاوان لنرفع المرساة
هذا العالم يضجرنا
واذا كانت الارض والسماء سوداوين كالمداد
فان قلوبنا التي تعرفها ، هي ملأى بالنور والاشعة

وقد بلغت تلك الثورة القانطة ذروتها بقوله :

لا فرق بين النعيم والجحيم
المهم ، ان نعثر على ما هو مبتكر وجديد

وهذه الابيات هي خير ما يمثل النزعة الرئيسية الاولى التي تصدر عنها التجارب الشعرية في شعور الفنان او في لا شعوره . انها نوع من التململ والضيق بعبء العالم الخارجي الذي يجثم بثقله المتمادي الرهيب على وجداننا دون اي تبدل ويسطر علينا سيطرة تامة توري في النفس حيرة البعيد والجديد وتدفعها الى التمرد على تلك الحدود القاهرة . فظلمة الارض والسماء التي تحدث عنها الشاعر، هي ظلمة الواقع وعتمة اللبس والحيرة . ولعل احساسه بجمود الارض والسماء لم يتحول الى ظلمة ، الا ليعكس اليأس المطبق الذي انتهت اليه حيرته . الارض والسماء هما رمز للعالم الخارجي ، للوجود الثابت وطينته الكثيفة الشديدة الظلمة . اما الموت ، فانه معبر من الظلمة الى النور ، من سجن هذا العالم الذي يعيد ذاته والذي لا جديد فيه الى عالم مبتكر ، ابدا ، لا تطلع فيه شمس مظلمة كشمسنا ، ولا تبدو فيه نجوم منطفئة كنجوم سمائنا . فالشاعر يريد ان يفرض ذاته على الاشياء ويضيئها بنوره الخاص بينا هي تلبث مظلمة تعصاه ، ولا تكشف له عن اسرارها . انه يريد ان ينير العالم باشعة قلبه والعالم لا يستضيء الا بشمس العقل الثابتة ، الصامتة ، التي بلغت أشعتها غاية الوضوح ، وغدت لتفاهتها شبيهة بالظلمة والعقم .

وتر الشعر وتر غيبي

وهكذا يبدو لنا ان وتر الشعر هو وتر غيبي وان حدقته ، هي حدقة ماورائية ، تنفذ من طينة الاشياء الكثيفة الى الوجود الفعلي المختبيء وراءها . وذلك يعني ان الشعر

لايسيغ التقرير والوصفية لان الوصف هو رضوخ لما ظهر واتضح وفهم من الاشياء وهو يحيل الشعر الى نوع من النقل الذي يعيد بالالفاظ ماشخص شخوصا بصريا او عمليا او عقليا في المظاهر من دون ان يدعها تعبر في مصهر النفس لتستحيل بالانفعال الى رؤيا . ولئن كان البدائي في نظرته الاولى الحائرة الى الكون يغتبط باقتناص الشبه الحسي بين المظاهر ، فان الشاعر الحضري ، يرى ان التقاط وجوه الشبه التي تستقيم في حدود العقل ، هو تقصير عن ادراك الحقائق الكامنة المستسرة التي تحيا كالارواح الغامضة ، الخفية ، جامعة المظاهر برباط روحي خفي ، هو اكثر صدقا واشد عمقا من الرباط البصري الظاهر المبتذل . ولعله لا غلو في القول ان الشعر الوصفي وبخاصة عند الشعراء الحديثين ، هو احط انواع الشعر لانه يشير الى عجز الشاعر عن الحلول في روح الاشياء والانفعال بها انفعالا خالقا ، يفض قشرتها وينفذ من خلالها الى الوجود الحقيقي . وسوف نرى فيما بعد ، ان معظم الشعراء الحديثين الكبار ، يعبرون بالرموز ، وذلك لان الرمز هو وسيلة حية صادقة للتوحيد بين الداخل والخارج واسقاط الحدود بين عالمي الروح والمادة . ولقد قصر الشاعر العربي غالبا ، عن ادراك حقيقة الشعر من هذا القبيل ، فلبث يجول في حدود المادة او حدود المعاني منصرفا الى الغلو البصري القائم على الجزئية والحسية ، والواقعيةالتي يسيغها ويقرها المنطق ، من دون تلك الالتماعة النفسية التي لاتعبر عما شاهده الشاعر او فهمه ، بقدر ماتعبر عما عاناه واشرق له ، عندما انفعل وانذهل وقدر له ان يطل على اصقاع الوجود الروحي . فالشعر العربي كان يتجه الى المقابله ، يدني الاشياء ويقربها ، بينما ينصرف الشعر الحقيقي الى ما تستبطنه وترمز اليه . الاول يغشى السطح بينما ينفذ الثاني الى الغور والاعماق .

العالم المعنوي والنظريه المثالية

ومهما يكن فلا نغفلن ان حتمية العالم الخارجي لا تقتصر على المفاهيم المادية والنواميس العلمية المقررة بل هناك عالم معنوي اجتماعي يطغى على نفس الشاعر التي ترفضه ، وتتنازع معه وتتشبث بذاتها ، لان تنازلها له يؤدي بها الى الشعور بالقسر والعبودية والعقاب . وهذا العالم هو اشد وطأة من العالم المادي ، لانه اشد ارتباطا بمصير الانسان وترجحه الفاجع بين القيم ، وبخاصة قيم الخير والشر والكفر واليقين وما الى ذلك من مظاهر السلبية والايجابية .

ولقد كان اصحاب المذهب المثالي يعتقدون بتاثير نظرية الكاترتيس ، ان الادب هو وسيلة لتطهير النفس وتهذيب الخلق والترغيب حتى طفت النزعة الخلقية على الادب واستأثرت بطبع الاديب ، فجعل يحورالموضوع ويوقعه ويقسره ، لتنتصر ، في النهاية ، الفضيلة على الرذيلة . نشهد ذلك في المسرحية الاتباعية حيث كان الادباء يسوقون اشخاصهم في خط نفسي مستقيم،كانهم مسيرون فيه مجبرون عليه بارادة خارجية ، مكرسة وليس بحتمية داخلية في نفوسهم . وقد جعل هؤلاء يجارون سنة لاتتغير ، حتى بتنا نتوقع النهاية منذ البداية .

وآفة هذه النزعة المثالية انها تخالف غالبا مجرى الحياة حيث ينتصر احيانا ، الشر على الخير والفساد على الصلاح . لهذا جاءت الواقعية تقول ان الفن ليس تجميلا للواقع ، او تحويرا له وفقا للمقتضيات الخلقية والاجتماعية ، وانما هو نزوع منه وانفعال بحقيقته، اكانت قبيحة شريرة او حسنة صالحة . فغاية الفن ان يعبر عن ذاته ، من دون ان يدع القيم الاخرى تقتحمه وتشوهه ، وتصرفه عن حقيقته . وذلك يعني ان الفضيلة والرذيلة تتساويان في الادب ، لان الادب يقيم من الناحية الفنية الجمالية ، وليس من الناحية الخلقية الاجتماعية .

ولعل شكسبير ادرك ذلك في حدسه المبدع ، فهو بالرغم من توقعه للمجرمين مصيرا منكرا نراه ينجرف احيانا كثيرة بالحس الواقعي الوجودي المفجع فتتساوى لديه الرذيلة بالفضيلة ، عبر الانفعال المأساتي ، ويتخدر لديه الوعي الخلقي الذي يقبض على المسرحية من الخارج فنرى الاشخاص الفاضلين يلاقون في مسرحياته ، مصيرا لايقل فاجعة عن مصير الاشخاص الشريرين . لذلك اتهت مسرحية هملت بمذبحة مروعة تساوت فيها مصائر الاشخاص في خضم الفاجعة وظهرت الحياة بكل مافيها من عنف الواقع الذي لايخضع لاحكام الاخلاق والعقل ، بقدر مايخضع لاحكام الاهواء المهووسة المتمزقة .

ونشهد هذه الظاهرة ، ايضا ، في الرواية وبخاصة في روايات بلزاك وفلوبير ومن اليهما ، حيث يتكاثر عدد الاشخاص المشوهين وذوي العاهات ، ومياسم الضعة والمنكر ، والمدموغين بالجريمة والمسيرين بالعقد النفسية . ومعظم هؤلاء ينجحون ويندحرون ، وفقا لطبيعة الواقع والتطور الداخلي للعمل الفني ، وربما راينا بعض هؤلاء ينجحون من دون الاشخاص الصالحين ، كما نرى في رواية « اوجيني غراندي » . ولقد كان ذلك كله مظهرا لاستقلال التجربة الادبية وتحررها من القيود الخلقية المطلقة ،وبخاصة متى كانت هذه القيود خارجية ، اصطناعية ، مفترضة ومقحمة اقحاما مقيتا على الواقع .

الخير والشر

ولا نحسبن بذلك ، اننا نذهب مذهب الاصمعي في القول أن « الشعر نكد بابه الشر فان دخل في الخير ضعف» فالفضيلة حرية ايضا ، ان تخصب الانفعالات الفنيةوتفجرها لكنها تبدو في ظاهرها اقل قابلية لذلك من الرذيلة ، لان الخير هو رمز للايمان والطمانينة والرضا بواقع المصير والوجود . فهو يقبل بالاشياء ويتفاءل بها ، ويهدىء من روع النفس ويحررها من الرعب والحقد والثار والشعور بالنقمة والتحدي ، وما الى ذلك مما يتنازع به المرء مع مصيره وعقله محاولا ان يفرض ذاته على الاشياء بدلا من ان يرضخ هو ذاته لما تفرضه عليه . اما الشر فهو الذي يبعث الشك ويحيل التفاؤل الى نوع من الشعور بالتخلي والعبث والهاوية ، وهو الذي ينقض حدود الاشياء ويرفض معطيات العقل والضمير ويزرع البلاء والخراب في النفس وهو كذلك الذي يغشى العالم الهادىء المطمئن بسور الارتجاج والتشويه ، مبدلا ملامح الاشياء مفككا اوصالها ومغيرا احجامها واقدارها ، حتى يحيل روضة الحياة الى بلقع عالمه عالم الفساد والانحلال .

تقاطب الخير والشر

ومهما يكن ، فان الخير والشر يتقاطبان ويتشادان ، يكاد لايبعث احدهما الا بموت الاخر ويكاد لايموت حتى يبعث من جديد . فهما ابدا في مد وجزر يدويان في النفس ويحركان اعصارها ، ويبقيانها في حالة يمتزج فيها النور بالظلمة ، فلا تبدو فيها هياكل الاشياء وملامحها

الواضحة ، بل اشباحها وظلالها ، أي اطياف التجارب الشعرية . لهذا ايضا لا نبرح نقول ان وراء تجربة الشر صراعا دائما مع الخير ، وليس تعبير الشاعر عن ازمة الشك والشر في نفسه ، الا ايعازا قاتما غير مباشر بان عصب الخير والفضيلة لم يمت في نفسه ، وان كان قد وهى وتخدر واستسلم . فالشاعر لايعبر عن يقين الشر او يقين الخير بل عن تصارعهما . والشعر يتولد من عراك النفس وليس من مهادنتها ، انه النجيع الذي يسيل من جراحها. ولعل اكثر الشعراء انصرافا للتعبير عن الرجس والمنكر واللعنة ، يظهرون صورا كثيرة من تلك الازدواجية . ففي شعر ابي نواس ، تردد دائم على امور البعث والعقاب والحدود ، وهو لاينفك يجادل ويتنكر لها ، مظهرا بطلانها، وسخف من يتبعونها . ولقد كان ذلك كله ، اشارة واضحة الى ان باعث التجربة في شعره ليس يقين الشر ، بل توزعه وترجحه بينه وبين يقين الخير . فالتنازع الخارجي مع الدين ، هو رمز للتنازع الداخلي بين الرذيلة والفضيلة . وكذلك ازهار الشر في شعر بودلير فهي لم تصدر عن الرذيلة في نفسه بقدر ما صدرت عن اندحار الفضيلة امام ذاتها وانهزامها انهزاما وجوديا قانطا بتأثير شعور بودلير بالعقم والعبث ولا جدوى المصير البشري . فالزهور هي زهور الشر ، اما الجذور ، فهي جذور الخير .

شعراء اللعنة

وهكذا ، فان شعراء اللعنة هم المخذولون ، الشاعرون بالسقوط والتخلي واللارجاء وهم يمثلون انتصار الاهواء والميول والغرائز الغامضة على العقل المترص والفضيلة القانعة بذاتها ، بعد ان تقتحمها التجارب ، فتشك بذاتها ويستبد بها القلق ، فتتزعزع وتوشك ان تزل وتهوى . ولكم يؤمن المرء بالفضيلة ، ويعجز عن تحقيق ما آمن به . فهو يعانقها في احلامه بينما يتعفر في واقعه بالرذيلة ،ويكاد لاينهض حتى يقع من جديد ، ويكاد لايقيم اعراس الخطيئة حتى يشيع في نفسه حس الاندحار والهزيمة والندم . ومتى غدا الانسان ، هكذا موثوقا مقيدا يحمل صخرة المصير على كتفيه يكاد لاينهض الى الذروة ، حتى يسقط الى الهاوية ، عندئذ تتفجر التجربة الادبية من حنين النفس الى عدن الفضيلة ، وهي تشعر بجحيم الخطيئة والندم . هناك اشخاص يسقطون وينعمون بسقوطهم لانه يمثل يقين الكفر ، وهناك من يسقطون بالرغم منهم ، ويتداعون ، في نهاية الاعصار ، كالانهيار والزلزلة . وسقوط هؤلاء هو نصف سقوط ، لانه انحناء للواقع والقدر وقسرا . هؤلاء هم الساقطون المعذبون ، الذين تخلى عنهم اليقين ، وخذلتهم ارادتهم وفجعوا بمثلهم، وقد صدرت عنهم التجارب بصدق الجرح والانين .

سور الانشقاق والانفصام

وهكذا يظهر لنا اخيرا ، ان الشعر رغما عن تحرره من المقاييس الاخلاقية من الناحية النظرية ، فانه يبقى مقيدا بها اشد التقيد في الواقع ، اذ ان التجربة الادبية لا تبعث ولا تخصب، الا عندما يحدث تأزم اخلاقي مصيري في وجدان الاديب يؤدي به الى اللبس والحيرة . فالاخلاق للاديب ، هي كالواقع ينطلق منها ويتنازع معها وفي احيان كثيرة يتخطاها . ولئن كان الاثر الادبي لايقيم بمقياس الرذيلة والفضيلة فانه يقيم بمدى ارتباط التجربة الادبية بمصير الاديب والمجتمع وما الى ذلك من قيم نفسية واخلاقية وحضارية .

لذلك لاننفك نرى أن من بواعث التجربة الادبية ايضا ذلك الاصطدام بين ذات الشاعر التي تريد ان تحقق ذاتها والواقع الاجتماعي ، أي واقع الاخلاق والعادات والتقاليد الذي يصيبها بالكبت ويحيل رغائبها ويوجه سلوكها . ولئن كان التوافق بين الذات الفردية والذات الاجتماعية يبعث في نفس المرء الشعور بالغبطة والرضا ، فان الاصطدام بينهما يبعث في النفس سورا عظيمة من سور الشقاق والانفصام ، وتمزقا وبؤسا بين مد الاشياء وجزرها ، بين اليقين والشك ، بين التقليد والتجديد ، وما سوى ذلك من مظاهر الخصام بين نفسية الفرد وبيئته . وبالرغم من ان المرء يتكيف وفقا للبيئة وينحني لها ، فانها تبقى في ضميره المظلم ، وفي لا وعيه ولا شعوره ، احساسا غامضا بالكبت والقهر وانعدام التطور . وبدلا من ان تكون المجال الحيوي الذي تتحقق فيه الشخصية ، فانها تنقلب ، غالبا الى عائق لها يسفح احلام الاديب ويعفي على مثله ويقيده تقييدا مرهقا بالواقع .

الفشل ونقصان الذات

وان من ينظر في البواعث الخفية للتجربة الادبية يتحقق له ، أن وراءها صراعا دائما بين الفرد ومجتمعه واحساسا راغما بالهزيمة والفشل ونقصان الذات ،واحساسا حادا بمستحيل الاشياء ورفضا لحدودها وامتناعا عن الخضوع لها . والادباء الكبار هم الذين يحملون احلاما لايسعها مجتمعهم ولا يسيغها ولا يقوى على متابعتها واللحاق بها ، فيشعرون بالانفراد والغربة والمستحيل ويحيون في عالم فني ، تمحى فيه الحدود بين القوة والفعل او بالاحرى تتحد فيه القوة بالفعل وتحقق ذاتها بذاتها ، بعد ان تعجز عن ان تتحقق تحققا طبيعيا .

هكذا ، فان في اعماق الازمة الفردية قضية اجتماعية كما ان في اعماق الازمة الاجتماعية ملتقى الازمات الفردية والتجربة الادبية تنشأ فردية آنية جزئية ، لكنها لايمكن ان تبلغ مداها وتحقق ذاتها وتوفي الى ذروتها ، الا اذا خرجت عن حدود الفرد الى المجتمع ، ومن الواقع الخاص الى الواقع العام وغدت المشكلة في نفس الاديب رمزا للمشكلة في ضمير الانسانية ، لان المجتمع هو مجال تكامل التجربة الادبية ، كما انه هو مجال تكامل الفرد ، والاديب لايمكن ان يدرك الابعاد الحقيقية لتجربته ، الا اذا بلغ الابعاد الحقيقية التي ينطوي عليها واقع مجتمعه .

وطأة المجتمع على الفرد

ومهما يكن ، فان نظرية فرويد في الباعث الفني ، تظهر لنا وطأة المجتمع على الذات الفردية ،وتظهر ان التجربة الادبية تصدر غالبا ، عن ذلك الانفصام الذي يتولد في النفس ، عندما تحاول الذات البدائية الاولى ان تتحرر من الذات الاجتماعية المتطعمة بها ، والتي لاتبرح تصدها وتكبتها حتى تتلفع بالاسى وتشعر بالقهر والتحدي ولا تعتم ان يغشاها الوهم ويختلط عليها الواقع المستحيل ، فتنطلق من سجنها ، سجن المنطق والفهم والتقليد لتتنفس بشكل غامض فيما يقوله الشاعر ويشعر به ويخوض فيه . ان الصراع الحي القائم بين الذات البدائية الاولى والذات

الاجتماعية ، بكل ما فيه من عنف الغريزة واندفاعها ولا ارتدادها وبكل مافيه من التحدي والرغبة وما ينطوي عليه من بعث بعد موت وانتفاض بعد ركود ، هو الذي يبعث القلق ويحرك اعصار النفس واغوارها الهادئة باعثا فيها ذلك الانفعال الخالق الذي يبدع به الانسان العالم من جديد. لهذا لاننفك نرى ان الحركات الفلسفية والشعرية الحديثة تهدف ، في معظمها الى تحرير الفرد من طغيان المجتمع عليه والعودة به الى احضان حريته الاولى عندما لم تكن نفسه تعاني الكبت والحرمان ولم تكن تنطوي على ذاتها ، بعد ان يصدها الواقع . وليس تاكيد الوجوديين ان الوجود هو سابق للماهية الا محاولة لفك عقال النفس ، مما ترسب فيها وتراكم عليها ، بعد ان خرجت من عدن الفردية التي تحقق ذاتها بذاتها ، من دون المجتمع الذي وجد اصلا ، ليسير تكاملها ، فاذا هو يحد ذلك التكامل ويصده ، ويستبد به . وليس مانشهد في ادب السرياليين من تعبير تطغى عليه الفوضى ويشيع فيه الهذيان ، وتنحل خلاله الروابط المنطقية وليس مانشهده ايضا ، من تصريح بتسمية الاشياء التي يحرص المجتمع على كتمانها او الاشارة اليها بغموض بالاضافة الى ازالة الحدود الاخلاقية ازالة تامة من حدود التجربة ، ليس ذلك كله الا ثورة على المجتمع ، وما ينتسب اليه او ما تولد منه ، من قيم كالفكر والمنطق والفضيلة وسائر المقاييس والحدود ، انها عودة لحالة التشويش البدائي عندما لم يكن المنطق قد احكم نظام التفكير الذي يعجز عن التعبير عن حقيقة النفس وعودة الى الحرية البدائية ، عندما كانت النفس تحيا في غريزة الاشياء التي لا يعيقها عائق . لهذا كثرت في ذلك الشعر سور الشذوذ والهلسنة ، وطافت به احداق راعبة غريبة شاحبة ، وذلك لان الفكر المرضي ، كما يقول بلونديل ، هو فكر لا اجتماعي او بالاحرى فكر انحلت فيه الروابط الاجتماعية . ومعظم الاثار الادبية التي تتناول الحديث عن المجتمع ، هي محاولة لرفضه واصلاحه وتخطيه والنهوض به من واقعه الى مثال يتوق اليه الاديب ،اكان ذلك خيرا ،كما في ادب روسو ام شرا كما في شعر ابي نواس . فالادب الكبير ينطلق دائما ، من الواقع الاجتماعي ، لكنه لايعتم غالبا ان يثور عليه ، ويأنف منه او يرتد عنه . شهدنا ذلك في ادب الوجوديين والسرياليين والرومنسيين ، حيث نرى الهموم الفردية تسمو وتكبر وتتضخم حتى تتقمص الهموم الاجتماعية ويغدو تنازع الفرد مع نفسه شبيها بتنازع الفرد مع المجتمع . وهذا ماكنا نشير اليه ، سابقا ، اذ قلنا ان الانفصال قد يبدأ فرديا ، الا ان نموه النفسي والفني يجعلانه في النهاية اجتماعيا ، لان مشكلة الفرد توهم انها في نفسه ، بينما هي في الواقع في مجتمعه .

الادب الذهني

ومن هنا يجيء حكمنا قاسيا على ذلك النوع من الادب الذهني الذي يعزل تجربة الاديب في المطلق ويؤلف بيئة فردية فكرية في الوهم ، يعبر عنها بما عرف فى تقليد المعاني والصور التي تحدرت اليه ممن سبقه ، محاولا صقلها وتزيينها وبلورتها ، بعد ان يقطع كل صلة بينها وبين نفسه او بينها وبين رحم العصر الذي ينبغي ان تغتذي منه . ومثل ذلك الشعر يثير بالدهشة والغرابة وقدرة الشاعر على توليد المعاني وتعميتها لكنه لايؤثر تاثيرا نفسيا عميقا لان الشاعر لايتمثل فيه مايعانيه في واقعه ، او يتنازع به مع عصره . وذلك يعني ان مثل ذلك الادب لايرافق الانسان في محاولته لتحقيق نفسه عبر الزمن . هناك ازمة دائمة هي ازمة الوجود وهي تتخذ اشكالا مختلفة بالنسبة للبيئة والعصر ، ولا تبدو حية صادقة ، الا اذا واجهها الاديب من خلال بيئته وعصره ، دون ان يتخلى عن السمو بها الى الشمول والمطلق . ومعظم الاثار الادبية الخالدة تعكس مشكلة العصر لان مشكلة الانسان بالوجود لاتتخذ شكلا وجدانيا انسانيا الا في حدود المكان والزمان ، اي في حدود البيئة والمجتمع .

وهكذا ، فان نزاع المرء مع نفسه يتطور ويمتد ويتسع فيظهر وكانه انعكاس لنزاعه مع المجتمع ، كما ان نزاعه مع مجتمعه ، يتطور ويمتد فيغدو رمزا لتنازعه مع الوجود والقدر والمصير . فالتجربة الشعرية تنطلق من الواقع الفردي ، لكنها تكاد لاتنزع الى التكامل ، حتى تعانق الواقع الاجتماعي وتحل فيه ، وعندما تحاول ان تبلغ ابعادها القصية وتدرك كليتها تغدو ميتافيزيقية ، متخطية الفرد وبيئته ومجتمعه ، الى المصير الانساني المطلق ، دون ان تتخلى عن تقمص الواقع الفردي والاجتماعي ، او تقع في التجريد العلمي الفلسفي .

مدام بوفاري

ولعل ذلك ينطبق على التجربة الشعرية كما ينطبق على سائر التجارب الادبية . فمدام بوفاري لاتمثل ذاتها بقدر ماترمز الى اوروبا كلها ، بجميع مافيها من خدع المظاهر والتجديد الذي ينطوي على الاباحية والرذيلة وحب الشهوات والرغبة الشبقية بالترف والغنى . لقد كانت هذه المراة تتظاهر بالفضيلة والرصانة حتى ينخدع بها الناظر لتفننها في اخفاء روغانها وسوء طويتها ، وكذلك حضارة اوروبا فقد كانت توهم بالجمال والعظمة عصرئذ بينما كانت ترضع في الحقيقة ثدى الخطيئة ، وتعيش سرا في رحمها . وبذلك يكون الفرد قد غدا رمزا للمجتمع او تكون مشكلته قد توحدت معه واصبحتا مشكلة واحدة . فمشكلة مدام بوفاري هي بنفسها وباحلامها المحرورة المريبة وهي بالاضافة الى ذلك مشكلتها بمجتمعها الذي غذى تلك الاحلام المشبوبة ، وغرر بها ، وبعد ان اوهمها بنعيم الاشياء ، اذا به يقذفها ، في النهاية الى جحيمها .

ايليا الحاوي